تربية الإنسان في القرآن الكريم (قصة آدم وحواء نموذجاً)

د. حسن بن صالح الحميد
أستاذ مساعد – قسم الحسبة
المعهد العالي للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
جامعة أم القرى

خلاصة البحث:

يهدف هذا البحث إلى تسليط الضوء على أساليب القرآن الكريم في تربية الإنسان ، من خلال قصة آدم وحواء ، في القرآن الكريم ،والتي تحكي تجربة كاملة لا تكاد تستثني جانباً من جوانب الحياة المختلفة ، إلا ضربت فيه بسهم ، مع الإشارة إلى إبراز مكائد الشيطان ومداخله على النفس البشرية .

حيث يعرض البحث هذه التجربة بصيغة دروس تربوية ؛ مستخلصه من هذه القصة في فصولها ومشاهدها المختلفة ، ابتداءً من ارهاصات التكريم لآدم ، ومروراً بإسكانه الجنة و رغد عيشها ، ثم بيان مكر إبليس وإغوائه لآدم ، وفضل الله وكرمه بقبول توبة آدم وإهباطه إلى الأرض ، واستمرار العدوان بين الفريقين حتى قيام الساعة؛ في إطار منهجين مختلفين : منهج الحق، ويمثله: آدم وذريته ، ومنهج الباطل، ويمثله : إبليس وذريته، والعاقبة للمتقين.

المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله أما بعد ..

فإن كل ما تضمنه القرآن الكريم من العقائد والعبادات والآداب والأخبار .. ومن الزواجر والعقوبات، وما فيه من ضرب الأقيسة والأمثال وغيرها .. كلها تلتقي في تحقيق هدف كلي، هو تحقيق عبودية الإنسان؛ ذكرا وأنثى لله، وتخليص النفوس من أهوائها وشهواتها، وتهيئة الإنسان ليكون خليفة لله في أرضه؛ صالحا مصلِحا في نفسه وغيره ، مقاوما للفساد والمفسدين ، الذين يكونون سببا في خراب الأرض وتدمير مستقبل الإنسان.. أي يريدون أن تكون الحياة التي اختار الله لها منهجا ونظاما يصلحها، ويصلح حال الإنسان المستخلف فيها .. يريدون لهذه الحياة أن تكون دار حرب لله ولمنهجه وهديه ، وللإنسان الصالح العابد وحزبه.

وقد سلك القرآن كل أساليب التأثير والتوجيه ، وطرائق التربية لإحداث هذا الأثر العظيم، وبلوغ ذلك الهدف الكلي.

فهناك التربية بالقصة، والتربية بالموعظة ،والتربية بالأحداث ، والتربية بضرب الأمثال ، والتربية بالقدوة .. وغير ذلك من وسائل التربية والتأثير، وكلها موجهة إلى الإنسان الفرد ، والإنسان الأمة والمجتمع.

وعامة سور القرآن مشتملة على نوع أو أكثر من هذه الأساليب، قال تعالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ ﴾[سورة الأعراف: ١٧٥ ١٧] ، وقال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [سورة البقرة: ٦٥ – ٦٦] ، وقال عز وجل: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾[سورة الأنعام: ٩٠] وقال في مفتتح سورة يوسف عليه السلام: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾ ﴾ وفي خاتمتها **قال:** ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾. والآيات في هذا كثيرة، تنبّه إلى طرائق التربية بحسب أحوال المكلفين وأزمانهم.

ولقد تأملتُ في قصة آدم عليه السلام وزوجه في القرآن فوجدتها جامعة لمعظم تلك الأساليب التربوية، وكأنها على محدودية مشاهدها تحكي تجربة حياة كاملة، لا تكاد تستثني جانبا من جوانب الحياة إلا ضربت فيه بسهم، وقدمت فيه لبني آدم تجربة ومعالجة.

فرأيت أن تكون الدراسة بعنوان: (تربية الإنسان في القرآن الكريم : قصة آدم وحواء ، نموذجاً).

أهداف الدراسة:

ويحدوني أمل أن تحقق هذه الدراسة على وجازتها جملة أهداف، أهمها:

- إثارة قضية التربية في القرآن، بكل أساليبها، لأن النفوس مشارب، ما يصلح لشخص أو ظرف قد لا يكون مناسبا لآخر. وفي مطالعة هذه القصة جمع بين أكثر وسائل التربية تأثيرا بغرض إحداث صدمات كهربية، تخرج المرء من روتين التوجيه النظري، وحالة الإلف والعادة إلى مواجهة الواقع بكل تضاريسه، مما يكسب الإنسان تجارب عملية تبقى مؤثرة لأطول فترة في حياته.
- جمع تفاريق قصة آدم وزوجه حواء في كتاب الله، وإبراز مواطن الاعتبار بهذه القصة العجيبة.
- كون قصة آدم وزوجه حواء في مواجهة إبليس ومكائده تمثّل تجربة إنسانية كاملة؛ من حيث أشخاصها [الذكر والأنثى] وأطرافها [الإنسان والشيطان] وميدانها [مكان العيش والمخالطة والمباح والمحظور]

وبرنامجها [أوامر ونواهي] إلى آخر ما تضمنته هذه القصة العجيبة من كل ما يحتاج إليه الإنسان في حياته على هذه الأرض. مما يجعلها تجربة متكاملة وحجة بالغة لله على الإنسان في كل ظروفه ومواقعه.

- إظهار عظمة القرآن وجمال العيش في كنفه.
- عرض هدايات القرآن بأساليب متجددة؛ بتجدد الأزمان وتنوع أساليب العيش ومؤثراته، بغية التأثير على النفوس حيث هي، لئلا يظن جاهل أن قصص لقرآن هي مجرد أخبار تقرأ للبركة لا للعمل والاعتبار.
- معالجة مشكلات الواقع ومداواة أدواء المجتمع بهدي الكتاب العزيز وكلام الرب الرحيم.
- كشف خفايا النفس البشرية، ومواطن الضعف والقوة فيها؛ ليكون المسلم على بصيرة من طبيعته من خلال مدارسة تجربة أبينا آدم وأمِّنا حواء.
- إظهار مدى شراكة المرأة للرجل في مسيرة الحياة، وموقعها منه.
- إبراز مكائد الشيطان ومداخله وأساليبه التي تتجدد مع ذرية آدم، كما كان مع أبوي البشرية.

منهج الدراسة :

سوف أستخدم المنهج الاستقرائي الاستنباطي التحليلي للنصوص حيث سأتناول النصوص المتعلقة بقصة آدم وزوجه حواء مع إبليس ضمن سياقات موضوعية، وأحرص أن يكون الاستنباط مما يظهر من دلالات النصوص، مع الاستئناس بكلام أهل العلم من المفسرين وغيرهم.

وسأعرض هذه القصة العظيمة في سياقها القرآني، وأستخلص أهم مواطن الاعتبار بها، وأحاول تقريب هذه الإشارات القرآنية على صيغة دروس تربوية لتكون برنامج عمل للإنسان المسلم ، وسأقتصر على ما يتصل بموضوع البحث، وهو الجوانب التربوية، دون بحث المسائل الأخرى التي تنبه إليها الآيات.

وتحاشيا للإطالة فإني أذكر من شواهد القصة ما تدعو الحاجة إليه ، دون استقصاء ، وربما أكتفي بذكر السياق الأكثر دلالة على المناسبة.

خطة البحث:

اقتضت طبيعة البحث أن يكون في مقدمة وخمسة مباحث وخاتمة :

المقدمة : وفيها أهمية البحث وأهدافه ومنهجي فيه .

المبحث الأول: إرهاصات التكريم ، ومؤشرات العداوة.

المبحث الثاني: إسكان آدم الجنة ، وبيان المباح له والمحرم عليه فيها.

المبحث الثالث: مكر إبليس وإغوائه لآدم ، وإيقاعه في المعصية.

المبحث الرابع : عتاب الله لآدم وتوبته عليه ، وإخراجه من الجنة .

المبحث الخامس : من فرائد الفوائد.

الخاتمة : وفيها أهم النتائج والتوصيات .

اسأل الله ان ينفع به كاتبه وقارئة انه ولي ذلك والقادر عليه .

المبحث الأول : إرهاصات التكريم .. ومؤشرات العداوة.

المطلب الأول : إرهاصات التكريم :

إرهاص التكريم يظهر جليا من خلال هذه الآيات في سورة البقرة، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾[سورة البقرة: ٣٠ – ٣٣] ، وهذه الآيات هي أول آيات ذكرت فيها قصة آدم حسب ترتيب المصحف. وهي سورة مدنية، بينما جاءت عامة سياقات القصة تقريبا في السور المكية. وقد جاء هذا الجزء من القصة بعد آياتٍ ذكر فيها أصناف بني آدم؛ وهم المؤمنون والكفار والمنافقون ، والأمر بالعبادة وانقسام الناس حولها، وعاقبة كل فريق.

وفيه إيماء إلى أن وظيفة جديدة سوف يشغلها هذا المخلوق المستخلف في الأرض، وهي لا تختلف عن وظيفة الملائكة في السماء من حيث غايتها، لأن الكل عابد لله، ولكن من حيث كيفية أدائها وآثارها. وهو ما سيظهر لنا جليا في تفاصيل هذه القصة العجيبة.

فالحكمة الإلهية من خلق الإنسان هي ظهور الاختلاف، ووقوع الصلاح والفساد، وقيام سوق المجاهدة والمدافعة بين بني آدم، على قاعدة الاختيار والمسئولية.

والحكمة من خلق الملائكة هو التسليم والطاعة لله وعبادته لا غير، على قاعدة الجبل والجبر وعدم الاختيار. فلهذا حكمة ولذاك حكمة. ولعل هذا ما لم يظهر للملائكة بادي بدء.

وقد ورد إظهار فضل آدم عليه السلام على الملائكة مفصلا في سورة البقرة دون غيرها، وهي أول موضع ذكرت فيه هذه القصة في ترتيب القرآن، ليكون فضله وما ترتب عليه محلَّ تسليم بعد ذلك. ثم إن هذه الآيات تجاوزت مشهد خلق آدم إلى مشهد إثبات فضله وأهليته لخلافة الأرض، فلم يرد لمشهد خلقه ذكر في هذا الموضع بينما ذكر خلق آدم مفصلا في مواضع أخرى، منها سورة الحِجر، وهو أجمع المواضع، والسجدة وسورة ص.

قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [سورة الحجر: ٢٦ – ٢٩]

وقد تكرر مشهد خلق آدم ونوّع القرآن وتدرّج في توصيف مادة خلقه. فهو من التراب في مادته الأولية، ثم صار إلى الطين وهو التراب المختلط بالماء في مرحلته الثانية، ثم من الطين المتييس المتغير لطول مكثه، حتى صار فيه ليونة وملاسة وقابلية للتصلّب من غير أن تمسّه نارٌ، وهو الحمأ المسنون، الذي إذا جفّ صار له صوت وصلصلة كالفخار، في مرحلته الأخيرة[١].

ومما نلتمس من حكمة الله في خلق آدم بهذه الكيفية ومن مادة الأرض أنه سيئول أمره إليها لتكون داره ودار بنيه إلى يوم القيامة. ومما يتصل بذلك أن الله قد جمع طينة خلق آدم من جميع الأرض، لأن بنيه سينتشرون فيها، فيكون لكل أمة منهم حظ وصلة بالأرض التي يعيش على ترابها؛ في لونها وطبيعتها.

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله تعالى خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض منهم الأحمر والأسود والأبيض والأصفر وبين ذلك والسهل والحزن والخبيث والطيب"[٢]

أما مشاهد تفضيل آدم باعتباره حقيقة مسلمة، ومشاهد التكليف والابتلاء لآدم وزوجه باعتبارها إحدى تبعات التكريم المتوقعة .. أما هذه فقد وردت مفصلة في سورٍ، منها البقرة والأعراف والحجر وطه وسورة ص. وهذه المشاهد هي أعظم مقاصد القصة، ولذلك كان ورودها متكررا مفصلا، على طريقة القرآن في إبراز مواطن الاعتبار والتفنن في عرضها.

واختصت سورة الأعراف دون سواها بذكر الوصية لبني آدم بالحذر من فتنة الشيطان صراحة بعد ذكر فصول هذه القصة.

وفي سورتي البقرة وطه جاء الحديث عن مرحلة ما بعد سكنى الجنة .. مرحلة المواجهة الأطول على الأرض، وتحمّل المسئولية، وجزاء الفريقين؛ المتبع للهدى والمعرض عنه، بما يستحق كل منهما .. وفي الأعراف إشارة ذلك.

ولم يرد في القرآن ذكر حواء باسمها، بل بوصفها زوجة. كما لم يتحدث عنها إلا من خلال بيت الزوجية.

وبالاستقراء لم يذكر القرآن لآدم وزوجه ذرية في الجنة، وإنما أشار إلى حادثة ابني آدم في الأرض. قال سبحانه ﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْـَٔاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [المائدة: ٢٧] . وهذه الحادثة من ابني آدم هي أول حالة حسد وبغي يسجلها القرآن من إنسان على أخيه الإنسان، بعد حسد إبليس وبغيه على آدم وزوجه في الجنة. ولم

يذكر إن كان آدم عليه السلام حيا حينها، أو أن هذين من صُلبه؛ لأن البنوة لآدم لفظ مشترك يدخل فيه كل بني آدم. وإن جمهور المفسرين على أنهما ولداه من صلبه وهو ظاهر القرآن وسياق القصة يعضده.(٣)

تلك مجرد إشارات إلى موارد هذه القصة العجيبة، ومظانها في كتاب الله. وهذا غيض من فيض أسرار تكرار القصص والتنويع في عرضها، ولكل سياق حكمةٌ، وهو أحسن شيء في موضعه .. فما أعظم أسرار هذا الكتاب!.

المطلب الثاني : مؤشرات العداوة:

لما ثبت الفضل لآدم عليه السلام على الملائكة أراد الله تعالى –وله المشيئة المطلقة –أن يُظهر فضله بكيفية يتحقق فيها الفرز بين معادن الخلق، ويظهر بها مكنون النفوس، ويكون فيها امتحان الكبرياء لأنه يستلزم غاية التسليم.

وأعظم صورة ذلك أن يؤمر المخلوق بالسجود لمخلوق مثله .. وقد جاء ذلك في آيات كثيرة ، منها قوله تعالى ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [سورة البقرة: ٣٤] وقوله في آية أخرى ﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [سورة الحجر: ٣٠ – ٣١] فكان هذا هو بداية التمايز ، والفارق بين الطبائع ..فلا عجب أن يتكرر ذكر هذه المعاني الثلاثة جنبا إلى جنب؛ إشهار فضل آدم بالأمر بالسجود له ، وإظهار فضل الملائكة بالطاعة والتسليم لأمر الله ، وطرد إبليس لما أبى واستكبر عن السجود إذ أمره الله. فكان التآخي بين صالحي بني آدم والملائكة، وكان تولّي الشياطين لعصاة بني آدم، وانجذابهم إليهم﴿ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [سورة الأعراف: ٢٧]

ولهذا فإن الملائكة لم يعترضوا على شخص آدم عليه السلام، وربما لم يعلموا حين أخبرهم الله أنه سيجعل في الأرض خليفة أن الخليفة هو آدم عليه السلام، ولا يوجد دليل يدل على علمهم بذلك. والأصل هو عدم العلم. وكانت فطرتهم سليمة وإنما تخوفوا الفساد وهابوا تبدّل الحال، ولهذا سلّموا للحق لما ظهر، واعترفوا بالفضل لأهله. وهذه خليقة الصالحين من الإنس والجن والملائكة. أما إبليس فكان إباؤه السجود بعد تعيين المسجود له وهو آدم، كما هو صريح الآيات.

سكبناه ونحسبه لجينا   فأبدى الكِيرُ عن خبث الحديد(٤)

وبهذا الموقف السافر ظهرت العداوة الشخصية والعقدية لآدم عليه السلام علانية وظهر معدنه الخبيث باستكباره عن أمر ربه. وهذه النتائج الأولية سيكون لها شأن أيّ شأن في بقية فصول هذه الملحمة.

المبحث الثاني : إسكان آدم وزوجه الجنة ، وبيان المباح له والمحرم عليه فيها وفيه مطلبان :

المطلب الأول : إسكان آدم وزوجه الجنة :

بعد الأمر بالسجود لآدم عليه السلام وسجود الملائكة، ظهر إبليس كعدو وحيد ومنبوذ .. فهل كان آدم يعلم بموقف إبليس منه وعداوته له ؟.

الذي يظهر أن آدم لم يعرف عداوة إبليس له من فوره .. بل بإعلام الله له. وظاهر القرآن يدل لذلك. قال تعالى ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ ﴾ [سورة طه: ١١٦ – ١١٧]. أي أن الله أخبر آدم وزوجه بعداوة إبليس بالقول لآدم باعتباره هو مسئول الأسرة المتولي صيانتها.

ومن تأمل الخطابات الموجهة لهذه الأسرة فسيجد أكثرها بلفظ المثنى. لأن آدم وحواء كلاهما مقصود لذاته بهذه التوجيهات، بدليل أنهما معا قد تحمّلا نتائج مواقفهما. وهذا جارٍ على غير معهود القرآن وأسلوبه من توجيه الخطاب بلفظ المذكر بصورة غالبة.

ومما يدل على أن آدم ربما لم يعرف عداوة إبليس له من فوره أنه لا تلازم بين عدم السجود والعداوة لآدم. وأيّا ما كان الأمر فقد فتحت صفحة جديدة، توجه فيها الخطاب لأول مرة إلى آدم وزوجه، وهي أول مرة تدخل فيها حواء إلى مشهد الأحداث، وظاهر السياق يدل على أن آدم قد تأهل، ومضى على مشهد السجود بعض الوقت. وقد تضمن الخطاب في هذه المرحلة أمورا عدّة، سيكون لمضمونها شأن بعد ذلك، فكن منها على ذكر!.

قال تعالى﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [سورة البقرة: ٣٥] وقال سبحانه﴿ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [سورة طه: ١١٧ – ١٢٠] ، فماذا في هذه الآيات ؟.

أسرة صغيرة ..ومسكن رحبٌ ﴿ يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾ وعدوّ مترصّد لكل أفراد الأسرة ﴿ يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ ﴾، وهدفه تدمير الأسرة وتشريدها، وتخريب المسكن ﴿ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴾ ، وهاهنا وقفتان :

الأولى : لماذا قال "فتشقى "ولم يقل فتشقيا؟

إن هذه لفتة من الحق سبحانه وتعالى.. إلى مهمة المرأة ومهمة الرجل في الحياة. فمُهِمّة المرأة أن تكون سكنا لزوجها عندما يعود إلى بيته. تذهب تعبه وشقاءه، أما مهمة الرجل فهي العمل حتى يوفر الطعام والمسكن لزوجته وأولاده. والعملُ تعبٌ وحركة.

وهكذا لفَتَنا الحق تبارك وتعالى إلى أن مهمة الرجل أن يكدح ويشقى. ثم يأتي إلى أهله فتكون السكينة والراحة والاطمئنان. إذا كانت هذه هي الحقيقة. فلماذا يأتي العالم ليغير هذا النظام؟[٥]

وإذاً فالنصيب الأكبر من الشقاء سينال الرجل، سينال آدم، لأنه هو الذي سيتحمل أعباء الكسب وتوفير القوت للأسرة، فهو أولى أن يتوجه إليه الخطاب في هذا الشأن بالذات، كونه الأقدر على تقدير المصلحة وتكاليف فقدها.

إضافة إلى مافي ذلك من محسّن لفظي وهو تناسب رؤوس الآية، وهذا تابع، وهو من علوّ أسلوب القرآن، حيث تتعانق المعاني والألفاظ لتحقيق الإعجاز.

الثانية: تؤكد مشاهد القصة على شراكة حقيقية للمرأة في الحياة، فهي من الرجل في خَلقها، وفيها كل ما في الرجل من الخصال والطباع.

ويلفت القرآن الانتباه إلى هذه الحقائق بصورة علمية وعملية، فالخطاب والتوجيه لهما كليهما، من غير وصاية. وهما شريكان في تحمل نتائج مواقفهما من هذه التوجيهات، وفي العتاب، وفي طلب التوبة والاستقالة من الزلة والخطيئة. وفي التكليف والمسئولية على الأرض.

قال تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [سورة النساء: ١].

وتأمل هذا الخطاب القرآني قَالَ تَعَالَى:﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ ﴾ [سورة الأعراف: ١٩ – ٢٤]

تجد أن المرأة في صلب الحدث، حتى إن القرآن لم يفصح عن أي الزوجين كان الأسرع وقوعا في شرك الشيطان، أو ندما على ما فعلا وتوبة منه. والظاهر – والله أعلم – أن إخفاء ذلك مقصود لكي تتحمل المرأة مسئوليتها في الحياة كاملة، ولئلا تتذرع بأن الرجل هو وحده صاحب الذنب، وهي تابعة له، أو أن الرجل هو من أجبرها على الوقوع فيه. نعم لقد سجدت الملائكة لآدم الرجل، لكن حواء خلقت منه ليسكن إليها. وصحيح لقد توجه الخطاب أحيانا إلى آدم الرجل، لكن حواء مقصود أيضا. ولعل مما نستشِفّه من حكمة خلق المرأة من زوجها أن يكون فيها من النوازع والأخلاق مثل الذي في الرجل. كما نستشف من خوضهما معا هذه التجربة الأسرية بكل تفاصيلها أن يكفّ كل طرف عن التلوّم وإلقاء التبعة على صاحبه، خاصة عندما تكون النتيجة ليست مما يحب المرء أن تنسب إليه. وتلك معانٍ يجب على المرأة وعلى الرجل أن يدركاها بصورة صحيحة كي تستقر الحياة، ويتحمل كل جنس مسئولياته ويتعرف على طبيعته ووظيفته.

ولنعد بعد هاتين الوقفتين إلى القصة في سياقها القرآني.

أيّ شيء ستفقده هذه الأسرة لو طاوعت إبليس ؟

سوف تفقد أهم مطالب الحياة. ﴿ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا ﴿٣٥﴾ ﴾ [سورة البقرة: ٣٥] **ماذا في هذه الجنّة؟** قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعۡرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظۡمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضۡحَىٰ ﴿١١٩﴾ ﴾ [سورة طه: ١١٨ – ١١٩] ونلحظ في هاتين الآيتين أن الله ذكر العيش مجملا في الأولى ومفصلا في الثانية. وأن من تمام رغد العيش حسن الملبس وراحة البال والبدن." فضمن له استمرار الطعام والشراب، والكسوة، والماء، وعدم التعب والنصب"(٦). وفي وصف العيش بالرغد مزيد إغراء بالتمسك به والمحافظة عليه.

وإذا أردنا توصيف هذه المرحلة من حياة آدم وزوجه فيمكن القول إنها مرحلة تأسيس وتعلّم. كما تؤسس كل أسرة محل إقامتها وتتعرف على برنامج العمل في حياتها، ماذا لها وماذا عليها.

وهي مرحلة التلقي للتكاليف، والتعرف على الحقوق. والملائم في هذه الفترة هو أسلوب التربية بالتعليم، وتتخللها تربية بالموعظة عادة.

وربما كانت هي المرحلة الأكثر هدوءً في آدم وزوجه. لكنه هدوء يسبق العاصفة التي قلما يسلم منها إنسان أو ينجو منها بيت.

المطلب الثاني : وبيان المباح له والمحرم عليه فيها (مساحات المباح.. وشجرة المناهي).

كان آدم وزوجه يتلقيان هذه المعلومات لأول مرة ، لقد سمعا وعرفا أن لهما عدوا اسمه إبليس ، ولهما دارا هي الجنة ، وأن مساحتها واسعة ، وعيشها هنيّ؛ فلا جوع ولا عطش، ولا عريّ ولا تعب. وفيها شجرة واحدة فقط ممنوعان من قربانها وبحساب الربح والخسارة : إنهما أمام فرصة تاريخية ، كثير خيرها ، محدودة تكاليفها.

وهذه الحال لأبينا آدم وأمّنا حواء هي تجسيد وتقريب لحالنا على الأرض .. فالطيبات هي الأكثر، وهي مباحة لنا .. والمحرم هو الأقل، وهو الخبائث، وما فيه ضرر بدني أو ديني ،**قال تعالى:** ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [سورة الأعراف: ٣٢ – ٣٣] ، فالطيبات " توسيع من الله لعباده جعله لهم ليستعينوا به على عبادته"[٧]

ودائرة المباحات هي الأوسع. قال سبحانه﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [الجاثية: ١٣]

والقاعدة المقررة أن الأصل في الأشياء الإباحة حتى يدل الدليل على التحريم.[٨] فانظر وفقك الله إلى هذه المقاربة العظيمة بين حياة آدم وزوجه وبين حياة بنيه على مدار التاريخ. وكما وقع آدم عليه السلام وزوجه في حبائل إبليس فتقحّما المنهيّ عنه، كذلك وقع بنوه من بعده لهذا لا ينبغي ولا يصح الاسترسال مع المباحات، على حساب جوانب أخر، ولا الاستهانة بالمحظورات ولو كانت محدودة كما لا ينبغي أن نبالغ في الثقة بالنفس ونغلّب جانب السلامة. لا ينبغي أن تفهم الحياة هكذا، الحياة فيها هذا وهذا، ولا تصلح بلا قيود، ولا تستقيم بلا مناهي. لأن النفس تفسد وتطغى وتسترخي إذا لم يوقف في وجهها .. إن شجرة المناهي التي نهى الله آدم وزوجه عن قربانها ليست سببا في تضييق المباحات على الإنسان أو إيذائه بكبح جماحه عما فيه مصلحة معتبرة. بل لمصلحة الإنسان كانت الحياة هكذا.

إن الحياة لا تستقيم وتتطور وتتزكى إلا بوجود التكاليف والمنهيات .. والحوافز والتحديات .. وهذه كلها كانت موجودة في الجنة التي أقام فيها آدم وزوجه. لقد كان آدم وزوجه عابدين لله، يواجهان عدوا شرسا، وفي الميدان مساحة واسعة ومباحة للحركة، وفيها شجرة واحدة؛ صغيرة في حجمها، لكنها حاضرة في معادلة الحياة .. وقد تكبر في لحظة من اللحظات ليضيق الفضاء المباح، فلا يرى الإنسان إلا هذه الشجرة .. هذا المنهيّ عنه .. هذه الزاوية التي كان بالإمكان ألا يؤبه بها!. وهذا يقع عادة عندما تتلاشى المعرفة النظرية، وتتغلب الطبيعة البشرية بكل مكونات الضعف فيها ..

لقد كان كل ما سبق من الوصايا الإلهية والتنبيهات لآدم عليه السلام وزوجه معلومات واضحة وافية، وآدم وزوجه لا ينقصهما التصديق بخبر الله، والإخلاص والرغبة في الامتثال والعمل.

وهذه التوجيهات الإلهية تكررت في مواضع، سبقت الإشارة إلى بعضها. ومحصلتها:

- حياة مستقرة، تتوافر فيها متطلبات الحياة الكريمة، وعدو متأهب معروف بشخصه ووصفه.

- ومواطن منهي عنها معروفة مشار إليها ، ومحل إقامة لا تجوز المخاطرة بفراقه.
- ويلزم لحراسة هذه المكاسب ، و التوقي من أضدادها يقظة دائمة، ومجاهدة مستمرة.

كانت كل هذه المعطيات معروفة معرفة نظرية ذهنية، فهل ثبتت أمام الامتحان ؟ أي هل كانت التربية بالتعليم والتربية بالموعظة كافية في إصلاح الإنسان والمجتمع، وسلامة المكتسبات ؟.

المعرفة الذهنية عادة ما تتلاشى مع مرور الوقت ، وسلامة الفطرة واستقرار الحال، ورتابة الحياة، وغياب التحديات. فيسهل الانخداع وينكشف الإنسان أمام عدوه، ويضعف أمام نفسه وهواه، وتغلبه شهواته. وهذا هو ما سجّلته هذه القصة العجيبة في المشهد الخامس من مشاهدها.

المبحث الثالث : مكر إبليس وإغوائه لآدام وزوجه ، وإيقاعه في المعصية،

وفيه مطلبان :

المطلب الأول : مكر إبليس وإغوائه لآدام وزوجه:

أمضى آدم وزوجه زمنا في عيش رغيد ، وكان إبليس مشغول البال باختراق هذا المجتمع الصغير الوادع وتكدير عيشه، لقد كان الحسد يأكل قلبه ، بينما كان آدم وزوجه وادِعَين لا يحملان حقدا ولا يتوقعان من أحد مكيدة، ولا كذبا على الله وعلى عباده، لم يعرفا ناصحا إلا صادقا .. ولا مُقسِما إلا بارّاً ، تلك هي طبيعة الإنسان، الذي سلمت له فطرته ؛ عرفنا ذلك في طبيعة أبينا آدم ، واكتشفنا هذه الطبيعة في صالحي قومنا.

وقد قرأ كل طرف سلوك الطرف الآخر بوحيٍ من طبيعته ، وتَحرّك بدافع من سجيته ..

تأمل هذه الآيات العجيبة، فهي نصّ في تصوير حال آدم وزوجه من جهة وإبليس من جهة أخرى. قال تعالى:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٖۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٢﴾ ﴾ [سورة الأعراف: ١٩ – ٢٢] هذه الآيات وما جاء في معناها تشير إلى جملة حقائق.

الأولى: أن البداية كانت إغواءً ووسوسة من الشيطان. و"كلمة " وسوس " تدل على الهمس في الإغواء، والمعروف أن الذي يتكلم في خير لا يهمه أن يسمعه الناس. لكن من يتكلم في شرّ فيهمس خوفاً من أن يفضحه أحد"[(٩)].

وفي هذا تنبيه إلى أن ذوي الأهداف الخبيثة يمشون في باطلهم لاصطياد الأبرياء، وليس بالضرورة لمواجهة كيدٍ بمثله. وكم وقع في حبائلهم من سليمي الصدور؛ رجالا ونساء.

وكون إبليس في قصة آدم هو أول من مارس الإغواء، وآدم وزوجه هما أول من وقع عليه ذلك الإغواء فقد كان الشيطان يباشر ذلك بنفسه .. وهو بهذا يسنّ أقبح سنة لبنيه، ويجسّد تجربة عملية لأتباعه. وكما أن هذه القصة العظيمة هي مدرسة لبني آدم، فهي مدرسة للأبالسة يتعلمون منها.

الثانية: أن الإنسان يشتمل على نقائص وعيوب في خَلقه وفي خُلُقه. وكلما ضعُف في باطنه وخُلقه ظهر أثر ذلك على ظاهره؛ على بدنه وجوارحه. فالطاعة والتدين ستر وصيانة، والمعصية والفسوق تهتّك ورذيلة. والإنسان عادة لا يقبل نصيحة بالتعري، لكنه قد ينخدع بوسوسة تفضي إلى ذلك ولو بعد حين.

والسوءة التي تنكشف ليست هي العورة المغلظة فقط. السوءة هي كل مايسوء المرء ويزري به. ولئن جعل الله بُدُوّ السوءة علامة مباشرة على المعصية من آدم وزوجه، فتلك حالة خاصة ، قال العلامة السعدي مبينا هذين المعنيين؛ خصوصية انكشاف السوءة جرّاء المعصية من آدم وزوجه، والعلاقة بين المعصية والسوءة بالمعنى العام .. قال رحمه الله " ظهرت عورة كل منهما بعدما كانت مستورة، فصار للعري الباطن من التقوى في هذه الحال أثر في اللباس الظاهر"(١٠).

والشيطان ليس متأكدا من أن عاقبة المعصية هو ظهور السوءة ، لكنه كان يعلم أن عاقبة المعصية مما يسوء صاحبه ويضعف منزلته عند ربه. وفي هذا يقول ابن عاشور "واللاّم في: " ليبدي " لام العاقبة إذا كان الشّيطان لا يعلم أنّ العصيان يفضي بهما إلى ظهور السوءات ،فشبّه حصول الأثر عقب الفعل بحصول المعلول بعد العلّة كقوله تعالى: " فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً "القصص: ٨ وإنّما التقطوه ليكون لهم قرّة عين، وحسّن ذلك أن بدوّ سوآتهما ممّا يرضيا الشّيطان"(١١). ثم قال: "فالشّيطان وسوس لآدم وزوجه لغرض إيقاعهما في المعصية ابتداء، لأنّ ذلك طبعه الذي جبل على عمله، ثم لغرض الإضرار بهما، إذ كان يعلم أنّهما يعصيان الله بالأكل من الشّجرة، ولما كان عدُوّا ًلهما كان يسعى إلى مَا يؤذيهما، ويحسدهما على رِضَى الله عنهما، ويعلم أنّ العصيان يُفضي بهما إلى سوء الحال على الإجمال، فكان مَظهر ذلك السوء إبداءَ السوْءات"(١٢)وعليه يبقى معنى السوءة العام وكونه علامة على المعصية والفسوق يبقى هو الدرس المحكم لذرية آدم وحواء.

الحقيقة الثالثة: أن عملية الإغواء لها أذرع تتحرك من خلالها. ونقاط الضعف لدى الإنسان هي التي تفتح شهية كل وسواس خناس أو ظاهر، والمبطلون يدخلون منها، ويضيفون إليها من الكذب والتزيين أضعاف ذلك، ومن نجا من هذه فقد لا ينجو من تلك. وقد استثمر الشيطان بخبث كل هذه الأدوات ووظّف هذه المنافذ.

والضعف في الإنسان أنواع:

- ضعف يجب تهذيبه وإضعاف تسلطه على النفس كالشهوة وحب البقاء والمال والرئاسة، وما يتفرع عنها.
- وضعف يجب على الإنسان تقويته وتعاهد النفس حياله كفعل الأوامر وتزكية النفس.

- ونوع ثالث يمكن أن نسميه بضعف الذكاء الاجتماعي، وهو حال مركبة نتيجة قلة الخبرة والمخالطة، وليس بسبب ضعف العقل أو قلة الحيلة. والمضرّ منه هو الضعف والسذاجة، المفضيان لسهولة الانخداع، وتصديق المبطلين.

وقد صوّر القرآن حالة الإغواء والمكر الشيطاني بقوله سبحانه﴿ **وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ (٢٠) وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ (٢١)** ﴾ فالشيطان، وكل مُبطِل يَقتدِي به يُدلون بوسوستهم وكيدهم، أو نصحهم المزعوم، على ذات المنهي عنه يزينونه، كما في هذه الآية، أو على المأمور به يُخذلون عنه، كما في قوله سبحانه مبينا حال المشركين المخذِّلين عن سماع القرآن **قَالَ**﴿ **وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦)** ﴾ [فصلت: ٢٦]. وهذا يؤكد أن المبطِل يقتات على الهدم وتفريق الكلمة، وليس لديه ما يقدم مما ينتفع به الناس في دينهم وأخلاقهم. كما أنهم ينطلقون في دِعايتهم من قاعدة سوء الظن بالله وباختياره لعباده. وأنهم أدرى بالمصلحة وأكثر حرصا وحَدَبا على المنصوح من الله. وهذا أعظم جُرما من إضلالهم غيرهم. وهذا ظاهر في هذه القصة، فالشيطان يقول لآدم وزوجه ﴿ **مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ (٢٠)** ﴾ [سورة الأعراف: ٢٠].كما يقول مُبطِلو زماننا إن إقامة الحدود وحشية، والحكم بالإسلام طائفية، والالتزام بالسنة تخلف ورجعية.

ودغدغة المشاعر والضرب على أوتار الملك والخلود يسيل اللعاب، ويحمل على التفكير وتغيير القناعة، ويقضي على ملكة التفكير والمقارنة، لأن المكاسب الحاصلة كبيرة.

والنتيجة عادة ما تكون هي الوبال والخسارة، فلا أبقى المسلم على دينه، ولا ظفر بما زيّن له الشيطان وجنوده. وتأمل نتيجة وسوسة إبليس، لقد كانت حرمان آدم وزوجه من "الخلود الذي تمنياه، وفسد عيشهما "[١٣].

وحتى يقضي على تهمة الشك في نصحه بادر بالقسم﴿ **وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ (٢١)** ﴾ [سورة الأعراف: ٢١]" أي: حلفلهما بالله "**إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ** "فإني من **قَبْلكما ها هنا، وأعلم بهذا المكان ..حتى خدعهما. "قال بعض العلماء خَدع الشيطانُ آدمَ بالله عز وجل فانخدع. ونحن من خدعنا بالله عز وجل انخدعنا له"**[١٤] **وقد يخدع المؤمن بالله. وكان بعض أهل العلم يقول: " "**[١٥]."

إن الكريم إذا تشاء خدعته وترى اللئيم مجربا لا يخدع[١٦]

وقيل أيضا:

وإذا الكريمُ أَتَيْتَه بخدِيعَةٍ   فرأيته فيما تروم يُسارعُ

فاعلمْ بأنَّ كل متخادِعْ جاهلاً   إنَّ الكريمَ بفضله يتخادع[١٧]

وهذا التّفصيل لإلقاء الشّيطان كيده انفردت به هذه الآية عن آية سورة البقرة".[١٨]

الحقيقة الرابعة: أن هذا الكيد الباطل يفعل فعله في النفوس فتستجيب له أول الأمر في حالة تشبه حال المسحور المكره، الذي فقد القدرة على التحكم والاختيار. وكأن من يفعل المنكر والمعصية واقع تحت هذا التأثير الغريب عن بيئته وفطرته، وقد عبر القرآن عن هذه الحالة بقوله ﴿ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ﴾ [سورة الأعراف: ٢٢]. أي: أنزلهما عن رتبتهما العالية، التي هي البعد عن الذنوب والمعاصي إلى التلوث بأوضارها، فأقدما على أكلها"[١٩]. وكأن الشيطان ممسك بتلابيب من وقع في حبائله يُدَلّيه ويقامر بمستقبله. وهي حالة معبِّرة ينفر منها الموفّق.

ولو فحصنا حجج إبليس لم نجد من بينها حجة ذات مصداقية، فهو يحيل على أوهام ويعلق بالأمانيّ، ويعززها بالأيمان الكاذبة، التي يقيمها مقام البراهين، أي أنه يدّعي ما لا يملك تحقيقه في مقابل تدمير واقع أثبت صحته. فقد ثبت لآدم عليه السلام وزوجه صحة وعد الله وهاهما يرفلان في نعمِه. أما وعود الشيطان فليس عليها من دليل إلا الدعوى. وهنا نذكّر بالطبيعة الطيبة لآدم وزوجه، التي سهّلت لإبليس خِداعهما، وكانت وراء تصديقهما عدوهما.

وقد صرح إبليس بضعف حجته، وأنه كان يعتمد على ضعف ملكة الإنسان ذاته وضعف دينه وفسوقه عن أمر ربه. قال سبحانه ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [سورة إبراهيم: ٢٢]. وإبليس يدلي بهذا الاعتراف الرهيب عندما يَقُومُ.. خَطِيباً فِي أَهْلِ النَّارِ، لِيَزِيدَهُمْ حُزْناً إِلَى حُزْنِهِمْ، وَحَسْرَةً إِلَى حَسْرَتِهِمْ، فَيَقُولُ لَهُمْ: إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الحَقِّ عَلَى لِسَانِ رُسُلِهِ، أَمّا أَنَا فَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ، وَلَمْ يَكُنْ لِي دَلِيلٌ وَلاَ حُجَّةٌ فِيمَا وَعَدْتُكُمْ بِهِ، وَدَعَوْتُكُمْ إِلَيْهِ، وَقَدْ اسْتَجَبْتُمْ لِي بِمُجَرَّدِ أَنْ دَعَوْتُكُمْ وَوَسْوَسْتُ لَكُمْ فَلاَ تَلُومُونِي اليَوْمَ، وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ لأَنَّ الذَّنْبَ ذَنْبُكُمْ"[٢٠].

وبعد أن آتى الكيد الخبيث أكله وتهيأت نفس آدم وزوجه للأكل من الشجرة التي نُهيا عن قربانها، وما تبع ذلك من تغيّر في حالهما .. هنا تبدأ مرحلة جديدة، هي أشد فصول هذه القصة وأقساها على نفس أبوينا .. آدم وحواء.

المطلب الثاني : وقوع آدم في المعصية .

إنها مرحلة فارقة بين الهدوء والعاصفة، بين السلامة والقلق، بين بركة الطاعة وشؤم المعصية. قال تعالى﴿ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٢﴾ ﴾ [سورة الأعراف: ٢٢].

ذاق آدم عليه السلام وزوجه الشجرة من غير جوع مُكرِه .. وكانت حِمى ممنوعا، ولكن طول المماسّة والمجاورة يغري بالمواقعة. فإن "مَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ كالراعي يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ.."(٢١)طول المعايشة يغري بالمواقعة من غير وسوسة ، فكيف إذا اجتمعت الوسوسة والمماسّة !.

ومما نستشِفّ من الحكمة أن وجود الشجرة الممنوع مقاربتها داخل حريم الجنة وعلى طريق مطروق لآدم وزوجه أن يبقى الإنسان متيقظا، يواجه شجرة المناهي على الأرض ويدافع وسوسة الشيطان في الخواطر والقلب. وهذه هي طبيعة الحياة الدنيا.

وشجرة المناهي يمكن أن تتسع لتشمل آلاف الصور في حياة الإنسان، لكنها جزء أصيل في تكوين الحياة، لا يمكن للحياة ولا للإنسان أن يقطع رحلة الحياة دونها.

فآدم عليه السلام وزوجه لا عهد لهما بالمعصية ولا بآثارها عمليا، وإن كانا يعرفان نظريا شيئا من ذلك .. وقد قلنا فيما سبق إن المعرفة النظرية غير كافية مع طول الوقت.. كما أن التربية بالموعظة لا تكفي أيضا. فما هي حال المذنب الذي يغشى المعصية أول مرّة. قال سبحانه﴿ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ ﴿٢٢﴾ ﴾ [سورة الأعراف: ٢٢]. وفي الآية الأخرى﴿ فَأَكَلَا مِنۡهَا فَبَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ﴾ [سورة طه: ١٢١]. وقد لخّصت هذه الكلمات في الآيتين أبرز ملامح الحال الجديدة لإنسان تلبّس بالذنب أول مرّة ، وفي الآيتين تعبير عن حال خاصة لظهور أثر الذنب في حق آدم وزوجه ، وهي خصوصية شكلية لا تجعل من هذه الحادثة حادثة لا يقاس عليها ، أي أن جعل الله انكشاف السوءة دليلا ماديا على مقارفة المعصية هو من جنس جعل شجرة معينة رمزا للمحظور على آدم وزوجه. وقد يكون جنسها غير محظور على بني آدم. لأن الله تعالى يبتلي عباده بما يشاء. والغرض أن الآية تشير إلى حال عامة من التغير، تظهر على كل إنسان من بني آدم يقع في المعصية، خاصة من كان سالم الفطرة نظيف الثوب.

ويمكن رصد ملامحها في:

- تغيّر المزاج واضطراب النفس بصورة تظهر آثارها على حركات الإنسان ومواقفه.

- محاولة العودة إلى الحال السابقة بأسرع وقت .. والتخفي من الناس حتى تعود المياه إلى مجاريها.
- استخدام أي شيء يساعد في ردم الفجوة وإصلاح الخلل.

ذلك أن النفس الطيبة لا تألف الخنا، وتستوحش من المعصية، لأن للمعصية وحشة وأثرا سلبيا مباشرا، والفطرة هي التوحيد والطاعة والسلامة.

تأمل حال الفتى البريء عندما يبتلى بالتدخين، كيف تكون حاله مع السيجارة الأولى!. والفتاة البريئة عندما تقع فريسة استدراج شيطان إنسي لها. إنهما يعيشان الحال التي وصفت لك بكل تفاصيلها.

إن ورق الجنة التي بادر آدم وزوجه إليها يستتران بها من سوءة انكشفت، يمكن أن تكون هي مُعطّر هواء أو ثوب، ومعجون أسنان يخفي آثار سيجارة .. ويمكن أن تكون عملية جراحية لترقيع بكارة اختلست من فتاة مغدورة مغرّر بها. لأن هذه التصرفات هي كل يمكن فعله لكل منهما.

وتأمل قوله﴿ وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ ﴾ أي جعلا يقطعان الأوراق بسرعة لستر ما يمكن ستره من السوءة. وللفعل طفق وخصف جَرسٌ ووقع على النفس لايخفى.

وتأمل قوله سبحانه﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ﴾ [سورة طه: ١٢١] فإن فيه نوع تشنيع على العاصي، وتنبيه إلى أن المعصية تترك آثاراً جانبية على الخواطر، لأن" الغواية: ضدّ الرشد، فهي عمل فاسد أو اعتقاد باطل"[٢٢]

لقد "استحوذ عليهما الخوف والحياء من ربهما، فأخذا يفعلان مايفعل الخائف الخجل عادة من الاستتار والاستخفاء حتى لايُرى، وذلك بخصف أوراق الجنة عليهما ليستترا بها، وما لهما إذ ذاك حيلة سوى ذلك"[٢٣]

وعند هذه الحال يعيش المذنب شعورا غامضا، فهو يرغب في مزيد من الوقت لإخفاء آثار الذنب، كما يتلفت حوله وكأنه ينتظر مَن يتدخل لمساعدته في تجاوز محنته، أو يكتشف حاله صدفة أو عن عمد.

المبحث الرابع : عتاب الله لآدم وتوبته عليه ، وإخراجه من الجنة :

المطلب الأول : عتاب الله لآدم وتوبته عليه:

بينما آدم عليه السلام وزوجه منشغلين بإصلاح ما أفسدته المعصية وترميم آثار الزلة .. بينما هما كذلك إذا بالنداء الرباني الحاني الرحيم ﴿ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ ،[سورة الأعراف: ٢٢] لقد خرج أمرهما من الخصوصية، ولكنه مازال في دائرة الستر، والله تعالى يعلم ما يفعلان ويرقب تحركاتهما، وفي اللحظة الأنسب ناداهما نداءً رحيما ودودا .. ﴿ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا

ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴾ ألا ما أرحم ربَّنا جلّ في عُلاه، وكأن آدم وزوجه ينتظران هذه اللحظة التي تخرجهما من الوحشة والاضطراب، من ورطة المعصية. فما إن سمِعا هذا النداء الرحيم حتى بادرا بالاعتراف وطلب الإقالة وسؤال التوبة ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [سورة الأعراف: ٢٣]. وهاهنا وقفات :

الأولى : يُعد الأكل من الشجرة مرحلة فارقة، في آثارها وفي طريقة علاج الآثار. فما كان مناسبا من الأساليب التربوية قبل هذه المعصية [الحادثة] لم يعد كافيا .. لأننا أمام خطأٍ عملي، سببه الضعف والغفلة وغلبة الهوى .. فكان لابد من الترقّي في أسلوب التوجيه .. كان التعليم والوعظ من قبل، ويكون العتاب الآن.. هذا من جهة المربيّ سبحانه وتعالى. وهو بهذا التدرج يعلمنا ويربينا نحن بني آدم.

الثانية : أما من جهة الإنسان، وهو هنا آدم عليه السلام وزوجه فإن حالهما واستعدادهما مختلف. إنهما الآن يتلقيان المعلومات الأولى ذاتها﴿ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٢﴾ ﴾ [سورة الأعراف: ٢٢]. لقد كانا يعرفان هذه المعلومات وأكثر منها من قبل، لكن هذه المرّة لها وقع خاص. كيف ؟.

لقد ارتبط بالشجرة المنهي عنها معاناة لا تنسى.. وأصبح الشيطان العدو عدوا يصل بكيده إليهما. لقد دفعا ثمنا غاليا نتيجة التهاون بالمحرمات وإحسان الظن بمن لا يستحق ذلك. إنها تجربة عملية مرّة المذاق. لقد تربّيا بالحدث والمعاناة، وكانا من قبل يتربيان بالتعلم والموعظة.

الثالثة : إن الاستعداد للاعتراف بالذنب والتوبة منه له وقت أفضلية، لا ينبغي تفويتها. بل يجب الطرق والحديد ساخن. وكلما تأخر علاج المشكلة عن هذا الوقت ضعفت الرغبة في إصلاح الخطأ، وهدأت النفس وربما وقع ذنب آخر .. وآخر. ولهذا تأمل توقيت النداء الرباني ﴿ وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ .. ﴾ [سورة الأعراف: ٢٢].

هكذا بلا تراخٍ ودون إبطاء. تماما كما يتربص الحداد بحديدة حامية فيختار اللحظة المناسبة لطرقها. ومثل ذلك قوله سبحانه ﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٦٥﴾ ﴾ [سورة آل عمران: ١٦٥]. وهذا أسلوب تربوي ناجح، ينبغي استثماره على طريقة القرآن. والحذر من استخدام العتاب قبل التعليم. أو إغفال الموعظة عند العتاب.

الرابعة: أن ابتداء المذنب بالحديث وفتح باب الحوار معه بلطف مما يعينه على نفسه، ويشعر المذنب بأن خطأه قد تجاوز حدود السرية والخصوصية التامة، وهذا يجعل المذنب في منتصف الطريق باتجاه الاعتراف والتوبة، بل

والإفصاح عن ملابسات وظروف لا يمكن التعرف عليها دون تعاون الشخص صاحب المشكلة. وهذا واضح في سياق هذه القصة العجيبة .. ألا ترى إلى الرب الرحيم ينادي آدم وحواء ﴿ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ ﴾. هذا النداء ضروري لفتح الحوار.

بل إن المطلوب هو أبعد من ذلك .. المطلوب هو أن تضع بين يدي المذنب مفاتيح الحلّ، وتأخذ بيده برفق بصورة عملية. كما تلقى آدم من ربه كلمات ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾ [سورة البقرة: ٣٧].

الخامسة: عندما يقع الخطأ فالمخرج ليس هو الحلول الترقيعية ولا الهروب إلى الأمام وليس هو الاستكبار والإصرار كلا بل هو الاعتراف والإقلاع وطلب الإقالة ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [سورة الأعراف: ٢٣]. وهذه هي الشجاعة الأدبية، وهي في كثير من الأحيان أسمى من الشجاعة البدنية، وأشق على النفوس منها.

المطلب الثاني : إخراجه من الجنة :

في اللحظة التي أعلن فيها آدم وزوجه الندم واعترفا بالخطأ، وذلك بتوفيق من الله. عند هذه اللحظة يسدل الستار على المرحلة الأكثر مشقة في حياتهما..

وتبدأ مرحلة جديدة، بعد تجربة حافلة وتضحيات مؤلمة. ولنقرأ ملامح المرحلة الجديدة بكل تفصيلاتها في سياقها القرآني ..

قال تعالى ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [سورة البقرة: ٣٧ – ٣٩].

وقال في آية أخرى ﴿ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ ﴾ [سورة الأعراف: ٢٤].

وقال في موضع آخر ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [سورة طه: ١٢٣ – ١٢٤].

لقد اكتملت التجربة، وتعرف كل فريق على الفريق الآخر .. وكل فريق قد أصاب الآخر، وكلا الفريقين أُتي من قِبَل نفسه.

فالشيطان دفع ثمن كبريائه وحسده، وكان ملابسة ذلك إباءه السجود لآدم ..

وآدم وزوجه وقعا تحت تأثير إغواء الشيطان ووسوسته فأكلا من الشجرة وقد نُهيا عن قربانها.

وقد اقتضت حكمة الله أن يخرج الفريقان من الجنة بما كسبت أيديهم ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [سورة فصلت: ٤٦].

أما إبليس فقد آذنه الله بالطرد بذنبه. قال الله ﴿ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ [سورة الأعراف: ١٣].

وأما آدم وزوجه فقد آذنهما الله بذلك بقوله ﴿ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ ﴾ [سورة طه: ١١٧].

وهذا من الله غاية العدل، كما أنه تنبيه إلى جدّية الحياة وأن قانون الأسباب هو الذي يجري عليه ناموس هذا الكون. وقد جاءت هذه المعاني صريحة في الآيات آنفة الذكر.

فقانون الأسباب نجده واضحا في الآيات السابقة ﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [سورة البقرة: ٣٨ – ٣٩].

﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [سورة طه: ١٢٣ – ١٢٤]. فلا محاباة ولا تفلّت من مواجهة نتائج الأعمال؛ لأن المرجع إليه سبحانه بعد رحلة الحياة الجديدة على الأرض قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ ﴾ [سورة الأعراف: ٢٤]. متاع إلى حين، وليس إلى الأبد.

والحياة الجديدة ليست فوضى، فهناك برنامج عمل واضح المعالم **هناك هدى من الله، تنزل به رسل الله تلك هي أبرز ملامح المرحلة الجديدة.**

فلم يترك الباري سبحانه ذرية آدم بعد أن فصّل ما جرى لآدم وزوجه، فأوصى وصية جامعة، وكأنها وصية بعد وصية.

فحريٌ بكل مسلم، بل بكل إنسان أن يتدبرها. قال سبحانه: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [سورة الأعراف: ٢٧]. أي لا تقعوا في الفخ الذي نصبه إبليس لأبويكم، فإذا كان أبوكم آدم وأمكم حواء معذورَين لحداثة العهد بعدوهما وحبائله، فأنتم لستم كذلك، فبين يديكم تجربة عملية، ينبغي أن تسهم في تقليل الأخطاء، ولدى الشيطان تجربة أيضا. " فعليكم أن تجعلوا الحذر منه في بالكم، وأن تلبسوا لأمَةَ الحرب بينكم وبيْنه، وأن لا تغفُلوا عن المواضع التي يدخل منها إليكم"(٢٤). وهذا من أحسن مواقع التربية بالموعظة.

المبحث الخامس : من فرائد الفوائد

وقبل أن أبلُغ بك خاتمة الدراسة هاك بإيجاز فرائد من الفوائد التي تضمنتها هذه القصة العجيبة، غير ما سبقت الإشارة إليه.

الفائدة الأولى: بين خطيئتين.

الآن وبعد الفراغ من استعراض أهم مشاهد القصة، والتعرف على مقدماتها ونتائجها. الآن نستطيع التفريق بين خطيئتين:

خطيئة آدم: وهي معصية عملية سببها الغفلة أو النسيان أو غلبة الشهوة. وعلاجها بالتذكير والموعظة، والبعد عن مواطن الريب.

وخطيئة إبليس: وهي خطيئة اعتقادية مركبة من الاستكبار والحسد، يغذّيها الحقد والغرور بتفوق الجنس. وهي أخطر في آثارها، وأصعب في التراجع عنها.

وهذا مشاهد في حياة الأمم والأفراد. فإن الناس يتوب أكثرهم من ذنوب الخطرات والشهوات، ولا يتوب أكثرهم من ذنوب الشبهات.

والواجب الحذر من كل هذه الذنوب، لأن الأولى بيئة تصطاد فيها الثانية، والثانية بيئة تنتعش فيها الأولى.

الفائدة الثانية: الحرية .. سلاح ذو حدين.

من خصائص الإنسان أنه حر مختار، مسئول عن اختياره. بخلاف الملائكة الذين

﴿ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [سورة التحريم: ٦]. والشيطان وإن كان بين الملائكة بجسده، فإنه مختلف عنهم في أصل خلقه فهو من نار، كما أن له حرية واختيارا، ولولا ذلك لم يتمكن من

الامتناع عن السجود إذ أمره الله. فأشبه آدم من هذه الجهة؛ أعني الحرية والاختيار. وذلك ليكون ساكنو هذه الأرض من الثقلين على صفات واحدة، وهذا من تمام العدل. فلله الحكمة البالغة في خلقه وأمره.

وهذه الحرية سلاح ذو حدّين فمن أحسن استخدامها ارتفع على سائر المخلوقات. ومن أساء ارتدّ أسفل سافلين.

وباستقراء مشاهد قصة آدم نسجل النتيجة التالية:

آدم وزوجه عملا صالحا ووقع منهما خطأ وذنب عن ذهول وغفلة.. فاستخدما هذه الحرية في التصحيح. ليجعلا من ذلك قاعدة في إصلاح الأخطاء كلما وقعت.

أما إبليس فقد أساء استخدامها فامتنع من السجود عن عمد وسبق إصرار، وبدلا من التوبة والتصحيح ركب متن الحرية باتجاه الهروب إلى الأمام تحت تأثير حسابات خاطئة، وأقيسة فاسدة .. فأهلك نفسه. ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾ [سورة الأعراف: ١٢]. ﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ [سورة الحجر: ٣٢ – ٣٣]. ﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ ﴾ [سورة ص: ٧٥ – ٧٦]. ماهذا الغرور والكبرياء؟ ﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ ﴾ .. ﴿ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ .. ﴾ ﴿ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ ما أجهله .. يعترض على الله! يقترح على الله ! ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ ﴾ [سورة غافر: ٥٦]. فكان عاقبة أمره أن خرج من ملكوت السماء ﴿ مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ﴾ [سورة الأعراف: ١٨].

وهكذا تكون الآثار مدمّرة لكل توظيف خاطئ للحريات أو غيرها في غير مجالاتها المتوافقة مع الفطرة وهدي الشريعة.

فلا تثق أخي المسلم برأيك .. ولا تستخدم عقلك في غير مجاله، ولغير ما خلق له.

الفائدة الثالثة: رُبّ سيئة قادت إلى هَلَكات .!

من خلال تتبعنا مراحل ومشاهد هذه القصة العظيمة ظهرت لنا بجلاء الحقيقة التالية:

لقد وضع آدم عليه السلام وزوجه حَدّاً للمعصية .. بالاعتراف بالخطاء وطلب الإقالة والتوبة، في شجاعة أدبية نادرة، وانحياز للحقيقة لحظة ظهورها، دون استهانة بالمعصية، بل بتعظيم وإجلال للخالق المربّي جلّ جلاله. إن

التوبة هي أحسن وسيلة لإغلاق الملفات السوداء، والقطيعة مع الماضي الذي لا يشرّف المرء الانتساب إليه، وفتح صحيفة بيضاء.

لقد مضى آدم وزوجه بعد التوبة في عمل الصالحات الماحيات، وكان هذا الذنب وقودا للسير إلى الله، لا حجر عثرة ومقعدا عن مواصلة الطريق.

عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله "صلى الله عليه وسلم"

"يجمع الله الناس يوم القيامة فيهتمّون لذلك، فيقولون لو استشفعنا على ربنا حتى يريحنا من مكاننا هذا ، قال : فيأتون آدم فيقولون : أنت آدم أبو الخلق ، خلقك الله بيده و نفخ فيك من روحه وأمر الملائكة فسجدوا لك ، اشفع لنا عند ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا ، فيقول لست هناكم ، فيذكر خطيئته التي أصاب فيستحيي ربه منها، ولكن ائتوا نوحاً.."[٢٥] الحديث.

أما إبليس المخذول فلقد كان يسعه أن يتوب من ذنبه ويستقيل من خطيئته.. لقد سأله ربه ﴿ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [سورة الحجر: ٣٢].

﴿ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [سورة ص: ٧٥]. لعله أن يستحي من ربه.. لكنه وهو المخذول جادل بالباطل، وهذه سيئة أخرى .. ثم أصرّ على الخطأ، وهذه خطيئة ثالثة .. ثم تمادى فطلب الإمهال للاستزادة من القبائح، وتلك قبيحة رابعة!..

﴿ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [سورة ص: ٧٥ – ٨٣]. في مواضع من كتاب الله.

وقد شمّر إبليس عن ساعد الجد ليفي بما أخذ على نفسه، وأخبر الله أن تلك كانت رغبة من إبليس عبّر بها عن عميق حقده في أول الدهر، ولكنها رغبة وأمنيّة تأيدت بواقع الحال. قال سبحانه ﴿ وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [سورة سبأ: ٢٠].

قرأ الجمهور "صَدَق" بتخفيف الدال فـ" إبليس " فاعل " ظَنَّه " منصوب على نزع الخافض، أي في ظنه. و" عليهم " متعلق بـ" صَدَق " لتضمينه معنى أوقع أو ألقى، أي أوقع عليهم ظنَّه فصَدَق فيه. والصِدق بمعنى الإصابة في الظن"[٢٦]."وقرأ أهل الكوفة: "**صَدَّقَ " بالتشديد**، أي: ظن في هم ظنًا حيث: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ

أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [سورة ص: ٨٢ – ٨٣]. ﴿ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ [سورة الأعراف: ١٧].

فصدّق ظنَّه وحققه بفعله ذلك بهم، واتّباعهم إياه"(٢٧)

فهي شهادة من الله لإبليس أنه بَلَغ من بني آدم مراده، إلا قليلا منهم، وهم المؤمنون.

وإني أعيذ نفسي وإياك بالله العظيم أن يَصدُق فينا ظن إبليس المطرود من جناب الله، أو يستجرينا فيزيّن لنا قبائحنا. فإن وقع أحدنا في ذنب، وكلنا لا محالة مذنب، فليكن الخروج منه على طريقة آدم، فنحن بنوه، ومن يشابه أبه فما ظلم.(٢٨)

أسال الله بمنّه وكرمه أن يرزقنا تدبّر آي كتابه، وأن يجعلنا ممن يستمع القول فيتبع أحسنه آمين .. آمين . والحمد لله رب العالمين.

خاتمة الدراسة

تدارسنا فيما مضى من الصفحات قصة، هي من أعجب وأعظم قصص القرآن، وكانت مدرسة للتربية، وقفنا من خلالها على عشرات التنبيهات والإشارات في السلوك والتربية، وتعرفنا من خلالها على طبيعة الحياة؛ حلوها ومُرّها .. وفي عُجالة أذكرك بأهم ما تضمنته هذه الدراسة.

- قصة آدم وزوجه هي في خلاصتها تجسيد لحياة أسرة، بل مجتمع. فيه كل متطلبات الحياة وضروراتها، كما فيه كل العقبات النفسية والخارجية التي تعترض الإنسان والمجتمع.
- لقد استخدم القرآن في هذه القصة أكثر الأساليب التربوية تأثيرا؛ كأسلوب التربية بالتعليم والتربية بالموعظة والتربية بالأحداث .. وكان أول ما بدأ به المزاوجة بين التعليم فالموعظة، ثم العتاب بعد ظهور الخطأ.
- تكريم الإنسان بالعلم هو المشهد الأول الذي يقرأه المسلم في أول القرآن، في سورة البقرة، وهي سورة مدنية، وذلك لكي يتهيأ الإنسان نفسيا لتحمل التكاليف، التي أساسها العلم، وهي ضريبة التكريم.
- كان القرآن بمنهجه التربوي السامي يبرز مواطن الاعتبار بهذه القصة، كمشهد السجود لآدم، وامتناع إبليس، ومشهد طرد إبليس، وإمهاله ليمارس وظيفته في إغواء من يطيعه؛ ممن يتخلى عن موقع التكريم الإلهي من بني آدم. وكمشهد الأكل من الشجرة وما ترتب على ذلك من تغير حال آدم وزوجه. ومشهد توبة آدم وزوجه، وقبولها من الله.. كل ذلك لكي تكون هذه القصة محل اعتبار، ومشاهدها قابلة للاعتبار بها.

- الخطاب في هذه القصة موجه إلى الرجل والمرأة في أكثر مشاهد القصة، ولم يكن خطاب المرأة حاضرا في عموم القرآن بهذه الكثافة مقارنة بخطاب المذكر. وذلك لتأكيد موقع المرأة وشراكتها في صناعة الحياة وتحمل مسئولياتها.
- ظهرت في ثنايا القصة كثير من الطبائع والسجايا، في آدم وزوجه، وفي إبليس، وفي الملائكة .. والإنسان بحاجة إلى معرفة نفسه؛ نقاط ضعفها ومواطن قوتها، ومعرفة عدوه بمكره وكذبه، كي يبصر مواقع أقدامه، ويتجاوز مواقع الزلل.
- المعلومات النظرية مهما كانت صحيحة لاتكفي وحدها لحماية الإنسان والمجتمع في دينه وأخلاقه، ولهذا لا تخلو الحياة من مواقف عملية ومن أخطاء، يتدرب الإنسان في مدرستها. وهذا ما جسّدته قصة آدم وزوجه؛ حيث انتقلت الأسرة من الحياة الوادعة إلى عواصف الإغراء ومزالق الخطأ، في رسالة تقول: إن الحياة هي هكذا.
- قانون الأسباب ظاهر في تضاعيف هذه القصة، لبيان أن كل ماجرى من أحداث إنما هو بأسبابه المعقولة، فالاستكبار له ثمن مرّ، والمعصية رغم كراهيتها يمكن الخروج منها. وهناك برنامج عمل في الجنة زمن الحياة المؤقتة لآدم وزوجه، وبرنامج في الحياة الدنيا التي تحوّلا إليها مع عدوهما بعد وقوع موجبات ذلك. ليكون قانون الأسباب هو قاعدة الحياة، فلا محاباة ولا فوضى. وذلك من بين أهم رسائل هذه القصة لبني آدم.
- التوبة الصادقة هي البوابة التي يجب الخروج منها فقط، وهي بوابة الإصلاح القابل للحياة .. والاعتراف بالخطأ هو الشجاعة الأدبية التي يستحق صاحبها الإجلال. والواجب التأسي بآدم في حال الوقوع بأي ذنب لا يسلم منه بنو آدم عادة.
- الشيطان قد أخذ على نفسه مواصلة الوسوسة لبني آدم، وقد أغراه نجاحه النسبي في تجربته مع آدم وزوجه في الجنة. وقد منحه الله الفرصة إلى أن يأذن الله بخراب هذا العالم، وأخبر الله أن توقعات إبليس في إغواء أكثر بني آدم هو كما توقع.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات .. وتنال أعالي الدرجات.

هوامش البحث :

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير: ٢/ ٦٦٩ و تفسير الرازي : مفاتيح الغيب :١٩/ ١٤٣، و تفسير البحر المحيط : ٧/ ٣٩٩كلهم عند تفسير الآية ٢٦ من سورة الحِجر.

(٢) اخرجه ابن حبان في صحيحه :٢٩/١٤،باب بدء الخلق ،وقال محققه شعيب الأرنؤوط : حديث صحيح.

(٣) انظر :تفسير السعدي (ص: ٢٢٨) و تفسير أضواء البيان للشنقيطي (١/ ٣٧١) عند الآية ٢٧ من سورة المائدة.

(٤) انظر: بهجة المجالس وأنس المجالس. باب التودد إلى الناس ١٤٢/١

(٥) انظر : تفسير الشعراوي (ص: ٤٠) عند الآية ٣٥ من سورة البقرة.

(٦) تفسير السعدي (ص: ٥١٤) عند الآية ١١٩ من سورة طه.

(٧) انظر: تفسير السعدي (ص: ٢٨٧) عند الآية ٣٢ من سورة الأعراف.

(٨)القواعد والضوابط الفقهية / القاعدة الثامنة ١٤١/١

(٩) تفسير الشعراوي (ص: ٩٦٣) عند الآية ٢٠ من سورة الأعراف.

(١٠) تفسير السعدي (ص: ٢٨٥) عند الآية ٢٢ من سورة الأعراف.

(١١) التحرير والتنوير (٥/ ٣٢٨، عند الآية ٢٠ من سورة الأعراف. وقد حكى احتمال أن يكون الشيطان يعلم بأن نتيجة معصيتهما انكشاف سوآتهما . قال" ويجوز أن تكون لام العلّة الباعثة إذا كان الشيطان يعلم ذلك بالإلهام أو بالنّظر" والأول أظهر.

(١٢) المصدر السابق في الموضع نفسه.

(١٣) تفسير المنتخب. لجنة من علماء الأزهر. عند الآية ١٢١ من سورة طه بتصرف.

(١٤) المحرر الوجيز :(٢/ ٤٥٠) عند الآية ٢١ من سورة الأعراف. ونحوه مروي عن عمر وابن عمر وقتادة وغيرهم. انظر: تفسير ابن أبي حاتم (٥/ ٤٩٠) وتفسير الطبري (١٢/ ٣٥١)

(١٥) تفسير ابن كثير : (٣/ ٣٩٧) عند الآية ٢١ من سورة الأعراف.

(١٦)تفسير القرطبي :(٧/ ١٨٠) عند الآية ٢١ من سورة الأعراف.

(١٧) انظر: تفسير القشيري (٣/ ١٢٢)

(١٨) التحرير والتنوير (٥/ ٣٢٨) عند الآية ٢٠ من سورة الأعراف.

(١٩) تفسير السعدي (ص: ٢٨٥) عند الآية٢٢ من سورة الأعراف.

(٢٠)انظر: أيسر التفاسير: أسعد حومد (ص: ١٧٧٣،) عند الآية ٢٢ من سورة إبراهيم.

(٢١)متفق عليه من حديث النعمان بن بشير. اخرجه البخاري: باب من استبرأ لدينه وعرضه ٢٨/١. ومسلم: باب من أخذ الحلال وترك الحرام ٥٠/٥.

(٢٢) التحرير والتنوير (٩/ ١٨٥) عند الآية ١٢١ من سورة طه.

(٢٣) الوسيط لسيد طنطاوي (ص: ١٥٩٦) عند الآية ٢٢ من سورة الأعراف.

(٢٤) تفسير السعدي (ص: ٢٨٦) عند الآية ٢٧ من سورة الأعراف.

(٢٥)متفق عليه من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه. انظر: صحيح البخاري . باب صفة الجنة والنار ٢٤٠١/٥ . صحيح مسلم. باب أدنى أهل الجنة منزلة ١٢٣/١

(٢٦) التحرير والتنوير (١١/ ٤٥٥) عند الآية ٢٠ من سورة سبأ.

(٢٧) تفسير البغوي (٦/ ٣٩٧) عند الآية ٢٠ من سورة سبأ.

(٢٨)صبح الأعشى: ٣٩٣/٩

المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم.

٢. التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور التونسي، من برنامج المكتبة الشاملة.

٣. الجامع الصحيح: أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي ، تحقيق: أحمد شاكر ، دار الكتب العلمية، بيروت.

٤. الجامع لأحكام القرآن: أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي ، دار الشعب، القاهرة.

٥. التفسير الوسيط ، محمد سيد طنطاوي، المكتبة الشاملة.

٦. القواعد والضوابط الفقهية المتضمنة للتيسير، عبدالرحمن بن صالح العبداللطيف، الناشر: عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، ط: الأولى، ١٤٢٣هـ ٢٠٠٣م.

٧. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبدالحق بن غالب بن عطية الأندلسي ، دار الكتب العلمية – لبنان – ١٤١٣هـ ١٩٩٣م ط:الأولى.

٨. أيسر التفاسير، أسعد حومد ، المكتبة الشاملة.

٩. بهجة المجالس وأنس المجالس ،ابن عبد البر النمري القرطبي ،دار الكتب العلمية ، بيروت.

١٠. تفسير البغوي المسمى معالم التنزيل ،أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، دار طيبة للنشر والتوزيع ط: الرابعة.

١١. تفسير القرآن العظيم :أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي: دار طيبة للنشر والتوزيع: الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م.

١٢. تفسير المنتخب، لجنة من علماء الأزهر ، دار الكتب المصرية.

١٣. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان : عبد الرحمن بن ناصر السعدي تحقيق :عبد الرحمن بن معلا اللويحق ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة: الأولى ١٤٢٠هـ –٢٠٠٠م.

١٤. صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ،أحمد بن علي القلقشندي، دار الفكر – دمشق ، تحقيق : د. يوسف علي طويل ،ط: الأولى.

١٥. صحيح ابن حبان ،محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي. تحقيق : شعيب الأرناؤوط ،مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ – ١٩٩٣م .

١٦. صحيح الإمام البخاري ، تحقيق :د. مصطفى ديب البغا ،دار ابن كثير، بيروت، ط: الثالثة، ١٤٠٥هـ.

١٧. صحيح الإمام مسلم ، دار ابن حزم، بيروت، ط: الأولى، ١٤١٦هـ.

١٨. في ظلال القرآن: سيد قطب إبراهيم، دار الشروق القاهرة.